



إنَّ الحياة بلا أهداف نبيلة وغایات عظيمة هي أشبه بالموت، وإنَّ الثباتَ على الجمود وانحسار ذاك الدَّبيب والحركة الباعثة لفورة النشاط والجد هي أشبه بالإصابة بالشلل الحركي..

وإنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لَا يَحْمُلُ بِدِاخْلِهِ رِسَالَةً نَبِيَّةً يَحْيَا لِأَجْلِ تَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا وَيَوْقِفُ لِخَدْمَتِهَا أَنْفُسَ سَاعَاتِهِ، يَصْبِحُ أَشْبَهُ بِالْمَيْتِ مِنَ الْأَحْيَاءِ، هَمَّاً لِيُسَّ لَهُ أَثْرٌ يُذْكَرُ وَلَا بِصَمَّةٍ تَخْلُدُ أَخْبَارَهُ وَتَنْقَشُ إِسْمَهُ فِي الذَّاكِرَةِ وَتَارِيخِ الْأَمَّةِ الْحَافِلِ بِالْأَمْجَادِ.

ويظلّ مغموراً في محيطة الضيق وعالمه المغلق، سجينَ واقعه المظلم وحبسِ أهوائه التي تهوى به في مدارك الشهوات فتغرقه في مراتع الزّلات وتجاذبِه إغراءات المطاعم والمطامح السّاقطة، فينسليخ عن فطرته وطبعته ويتحول إلى مسخٍ إنساني وأشبه بتمثال صخري لا شيء يحرّكه من مكانه، خاماً في عطائه وإنتاجه الثقافي والمهني، راكداً في مجراه كأوراق الخريف الذليلة ..

ولكن هذا الوجود الرَّحِب يحتوي من الأسرار والغايات ما تستحقُ حفظنا لتلك الأمانة الجليلة التي استخلفنا الله عليها وأن نؤديها بشرف ونراحته، ونتحرر من ذاك الوجود الضيق الذي يجُب علينا الإحاطة بتلك الأسرار والمعاني العميقة التي تتحرّك بها هذه الأنفاس الصَّاعدة والنَّازلة، والنبضات التي تهُزُّ الصدر هَذَا فتوّقظ فينا الشُّعور الجامد بدوره الحياة وصبيب الدُّم الجاري في عروقنا، كي نمضي في طريقٍ شاقٍ وعر وأرواحنا سابحة في الكون تلبّي نداء التكبير والتهليل والتمجيد والتعظيم لمن أودعها في هذه الأجساد ولم يقيدها بالأثقال، تتنفس بأنفاسها وحركات جوارحها وتنشط لسعتها في الأرض على نورٍ وبصيرة ..

ومتى انطفأ نوره الساطع بداخلك صارت روحك معتمة تعيشُ الضنك والشدة، مصداقا لقول الحق سبحانه في سورة طه: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْكِرْبَلَى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَاحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّنِي حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتَهَا ۝ وَكَذَلِكَ الْيَوْمُ تُنسَى) الآية 123 - 126

فليس العمى هو السواد الذي تراه العيون التي حجب عنها الإبصار، فالقلوب لها عيونٌ تُبصِرُ التُور الذي يختبئ في سُرُجِ الظلام... .

إنما العمى الحقيقي هو الشعور بالظلماء حين يغشى قلوبًا جفت مجاريها ونضبت في عروقها مصبات الدماء، وحمدَ في ما قيَها فتيل الأنوار الساطعة، وتوقفَت تغاريد الإيمان الصادحة على عرش نبضاتها، وتعالى الحق سبحانه الذي أرشدنا إلى هذه العبر والعظات البليغة لننهدي بها فقال: (أَفَكُمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَفَأُذْنَانِ يَسْمَعُونَ بِهَا ۝ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) سورة الحج : آية 46
وإيمانك يدفعك إلى غايةِ أسمى..

فأنت لا تستمد قيمتك الحقيقية ممَّن حولك من العبيد الفقراء لأنَّهم لا يملكون أكثر مما أنت تملُّكُه، وما جُمع بين أيديهم هي هباتٌ ونعمٌ مُهداة إليهم من صاحب النَّوَافِل والعطاء سبحانه، وما أدركوه من الدنيا الفانية لا يتعدَّ نقطَةً من بحر علمه الواسع ..

فاجعل إيمانك يرفعك إلى القمة، ويدفعك إلى طلب المعالي وبلغ الغاياتِ الأسمى، والمُجاهدة في رحلة الفلاح والفوز بالجنة، وفي سباق الطاعات مع الزمرة الأولى التي توحدت قلوبُها وغاياتها بوحدة الإيمان ورباطه المتين وتذرَّت بذاته نوره وجلاله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا اختلاف بينهم ولا تباغضُنَّ، قلوبُهم قلبٌ واحدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بِكَرَّةٍ وَعَشِيًّا)

واجعل إيمانك يسمو بك عن سفاسف الأمور وأوشالِ الحظوظ وأخْسِ الرَّغبات وأصاغِرها، ويرفعك عن مخالطة كل ربيَّة تُرْدِيك وخصَّلَة مَذْمُومة تخلع عنك هيبيتك ووقارك، واجعل إيمانك يرتفق بك مدارج العز والمجد والرِّفعة، فيصنُّرُ العالم بأجزائه الكثيفة في محيطِ بصرك وقلبك العامر بالإيمان، ويتلاذى كُبُقْعَةٌ صغيرة قد جرفت إلى طينتها الصَّلَبة المتشقَّقة ما اسْوَدَ من دفائن النُّفوس وأَحَاطَ الغايات، وغرست في أرضها القاحلة الجرداء أَدْنِيَاء العَبَد فتلَّوْنَا بألوانها الجافة اليابسة وتصحرَّت مشاعرهم من مخالطتها، وقد أنهكتهم الرَّغَبَاتِ والنَّزَواتِ، وأطاحت بهم الأفكار والمذاهب المُنْحرِفة فتجرَّدوا من صفاتهم البشرية، وخلعوا عنهم جلد إنسانيَّهم النَّاعِم، ولبسوا للحياة الماديَّة لباس أهْلِ الصَّوْلَةِ والخلاعة، بعد أن شَبُوا عن الطُّوق فصار الحكم فيهم فريسة القويِّ المستَأسِد..

وإيمانك يهُنِّك الحرية والحياة المضاعفة..

فإِنْسانَ المؤمن يجِدُ سعادته في لذَّةِ العبودية، فيستطيع قلبه بنورها الإيماني ويسري بداخله سريانَ الدِّفَءِ المنبعث من الشمس أول ظهورها بذلك الصفاء والنقاء والإشراق، ويصبح له كيانٌ شامخٌ وجودُه يتمثَّلُ الحرية المرتبطة بقوَّة التوحيد، في أنفاسه وخلجاته، وفي تلك العين التي تتأمل وتتدبر، وتلك البصيرة التي تكشف له حقيقة الأشياء ومعانيها، وتلك الحواس التي تحرَّرت من كل عبودية لغير الله، فصار التوحيد لها منهجاً وطريقاً، ومعالِم تحدِّدُ غاياتها

أما الحياة المنعمَة بنعيم الملذَّات الفانية، والمُفْرِطة في الإقبال على ترْفِ الحاجات، وتلبيَّة نداء الرَّغبات، وتحقيقِ مطامِع النفس التي لا تقنع إلا ببلوغ ما لا يسع العمر بلوغه، فهي تُلقي بصاحبها في مراتع الشهوات، وتغرِّفُهُ الأهواء في بحرِ تجاذبِه

أمواج الفتنة، فتصرفُ روحه عن ارْتقاء مدارج السَّالكين طريق الله، وتقيّد جسده بالقيود والأغلال الماديَّة حتى تُرهِقه
بِالإِشْبَاعِ الزَّائِدِ عن حاجة النفس الضروريَّة ..

فما أجمل أن يمتلك الإنسان حياة مضاعفة ومشعرة بسراج المعرفة، فلا تُبرد جنوة معانيها العزيزة في ميزان الإيمان
واللتقوى بقيمتها النَّفيسة، وقيمها الإنسانية والفكريَّة العظيمة، وإن كانت خاملة في ميزان المادة ..

وما أسعده النفس المؤمنة بما تَزْرَعُه من الطَّيبات، وما تلتفطُه من سنابل الخَيْرات، وما تحصُّدُه من الرُّطَب وأعذاق
الطَّاعات، فتروم مرام العارفين بالله، مُقْبِلةً على الله إقبالَهُم عليه وقد تحلّوا مما تحلّوا منه من قيود العبودية وفتَن المادة،
وانصرفت انصرافهم للطاعات، وتطهرت مما اسْوَدَ من الضَّغائن والأحقاد، والخطايا والآثام، والأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ، ترتوى من
رَشْفِ منابع الفطرة حتى تطيب وتلتذَّ بسِيقائِها العذْب، وتتنفس بأنفاسِها في فضائِها الرَّحْب ..

المسلم

المصادر: